

٣ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعدي

ترجمة: كان المسلمون حينما ناروا نورهم على بني مروان ينشدون في بني العباس حكماً يمد لهم عهد الخلفاء الراشدين ، ويكون خليفهم فيه كأحدهم لا يؤثر نفسه بشيء من أمور الدنيا عليهم ، ولا يأخذ لنفسه من أموال الدولة إلا ما يفرضونه له منها ، كما فرضوا لأبي بكر وغيره ، فلم يحقق لهم بنو العباس كل هذا الرجاء ، بل ظهروا بأبهة الملك التي كان يظهر بها بنو مروان ، واستأثروا لأنفسهم بأموال الدولة ، وجعلوها ملكاً لهم ينفقون منها في مصالح المسلمين ما تجوده أنفسهم ، وما يبق بعد حاجاتهم ، وحاجات أهل بطانهم وحاشيتهم ، وكذا أهل الملق من الشعراء والتدما ومن إليهم ، ولم يحققوا للمسلمين من كل ما أملوه فيهم إلا هذين الأمرين المهمين : المساواة بين الشعوب الإسلامية في حكم الدولة ، وتحضير الدولة الإسلامية بالثقافة العلمية الواسعة التي أحسنوا البلاء فيها

وقد انقسم المسلمون في شأن هذه الدولة بعد قليل من ظهورها إلى قسمين : فتجاها أهل الورع منهم وأبوا أن يتولوا أعمالها ، وسار معها جمهور المسلمين في ذلك السبيل الذي سارت فيه ، واستولى عليهم اليأس من ذلك المثل الأعلى في الحكم الذي كان على عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، ثم أقبلت الدنيا عليهم فانغمسوا فيها أيما انغماس ، وتفننوا في أنواع التلذذ بها أيما تفنن ، وكادوا ينسون الآخرة كما نسيها من كان قبلهم ، فكانوا في أشد حاجة إلى شاعر ملهم يوقظهم من تلك النغلة القاتلة ، ويؤدي في الشعر رسالته التي يجب أن يؤديها في كل عصر على الوجه الذي يتطلبها ، وكان لهم ذلك في شاعرنا أبي العتاهية

ولد أبو العتاهية سنة ثلاثين ومائة من الهجرة قبل قيام الدولة العباسية بسنة أو سنتين ، ونشأ بالكوفة ولكن أصله من عين التمر ، وأبو العتاهية لقبه ، واسمه إسحاق بن القاسم بن سويد بن

كيسان مولى عنزة ، وكان خالد بن الوليد قد سباه مع جماعة صبيان من أهل عين التمر ، فوجه بهم إلى أبي بكر ، وكانوا أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل ، ففرقهم في أهل البلاد والأقطار ، فاعتنقوا الاسلام واعتقهم مواليهم ، فكان لهم أثر صالح في العلم والأدب ، ونبغ من أولادهم جماعة كانوا من أكابر رجال العلم والسياسة والحرب ، مثل موسى بن نصير ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن إسحاق . وكان كيسان جد أبي العتاهية من نصيب عباد بن رفاعه العنزي ، لأنه سمعه حين سأل أبو بكر عن نسبه يذكر له أنه من عنزة ، وكان يكفله في عين التمر قرابة له منهم ، فاستوهمه عباد من أبي بكر ثم أعنته فتولى عنزة ؛ وكان بنوه يزعمون أنهم منها ويكرهون من ينسبهم إلى النبط الذين كانوا يسكنون عين التمر ، ولكن الظاهر أن أصلهم منهم ، لأنهم كانوا يحترقون بالكوفة من صنعة الجراد ما كانت تأباه فطرهم لو كانوا عرباً

وقد نشأ أبو العتاهية بالكوفة بين أسرته يعمل الجراد معهم ، ولم يذكر الرواة أنه اشتغل بالتعليم في صغره ، ولكن الظاهر من أمره أنه اشتغل بقدر منه كان له عوناً في الحياة التي آل إليها أخيراً أمره ؛ وكان بالكوفة طائفة من خلاء الشعراء وأهل المجون والخمسين ، وناهيك بشاعرها والبة بن الحباب الأسدي وما بلغ إليه في الخلاعة والعبث ، وهو في ذلك أستاذ أبي نواس وغيره ، فانصل أبو العتاهية بتلك الفئة اللاهية ، وأطلق نفسه في ذلك عنانها ، فوصل فيه إلى غايته ، وتحنث وخمل زائلة ؛ وأخذ عنهم شعرهم الخليع في التنزل والمجون وما إليهما ، فتبغ فيه ، واشتهر به أمره ، وكان الاحداث والتأديبون يأتونه وهو جرّار فينشدهم أشعاره ، فيأخذون ما تكسر من الخرف فيكتبونها فيه ثم قصد بغداد في عهد المهدي ليتصل بأمرائها ، ويستفيد بشعره عندهم ، وكان ثالث ثلاثة فتیان شباب أدباء ، ولم يكن لهم ببغداد من يقصدونه ، فنزلوا غرفة بالقرب من الجسر ، وكانوا يكرهون فيجلسون بالسجد الذي يباب الجسر في كل غداة ، فمرت بهم يوماً امرأة راكبة ، معها خدم سودان ، فقالوا من هذه ؟ قالوا خالصة ، فقال أحدهم : قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعراً فأعانوه عليه ، ثم صرت بهم أخرى راكبة ، معها خدم بيضان ،

حالك ، فامتنع أبو العتاهية من ذلك ؛ فقالت له : ليس هذا مما
تظن ، ولكني لا أحب أن أراك في هذا الزى ، فقال لها : لو
أمكنني أن تربي في زى المهدي لفعلت ذلك ، ثم أقسمت عليه
فأخذ الصرة فاذا فيها ثلثائة دينار ، فاكتمى كسوة حسنة ،
واشترى حمراء بركبه ، وحسن بها حاله

وهذه الرواية تعطينا أن أبا العتاهية كان صادقاً في حب عتبة
التي شبيب بها في شعره ، وتوله بها فيه إلى أن أفلح عن ذلك فيما
سيأتي من نسكه ، وربما يكون ذلك كله حسن خيلة منه ، وهو
ما كان يراه فيه ابنه عتاهية ، وقد روى عنه أن أباه إنما أقبل إلى
بغداد ليدع المهدي ، ويجهد في الوصول إليه ، فلما تناولت أيامه
أحب أن يشهر نفسه بأمر يصل به إليه ، فلما بصر بعتبة راكبة
في جمع من الخدم ، تنصرف في حوائج الخلافة تعرض لها ، وأمل
أن يكون توله بها هو السبب الموصل إلى حاجته ، وانهمك في
التشبيب والتعرض في كل مكان لها ، والتفرد بذكرها ، وإظهار
شدة عشقها ، وكان أول شعر قاله فيها :

راعني يا يزيد صوتُ الغراب بمحذاري للبين من أحبابي
يا بلاني ويا تغفل أحشا لي وتغشى لطائر نغاب
أفصح البين بالنعيب وما أف صح لي في نعيمه بالأياب
فاستهت مدامي جزعاً من بدمع ينهل بالتسكاب
ومنتع الرقاد حتى كائن أرمد العين أوكلت بصباب
قلت للقلب إذ طوى وصل سه بدى لهواه البعيد بالأنساب
أنت مثل الذي يفر من القط ر حذار الندى إلى الليزاب

والذي أرجحه من ذلك رأى عتاهية ، لأنه أدري بأبيه ،
ولأن عتبة لم تصدق في حبه حتى يصدق في حبه ، وإنما كانت
تتخذ للإعلان عنها لتنافس بذلك أترابها من جواري المهدي ،
وقد هم المهدي يوماً بعد اتصاله به أن يدفعها إليه فجذعت وقالت :
يا أمير المؤمنين : حرمتي وخدمتي ! أنهمني الرجل قببح النظر ،
بائع جرار ، ومتكسب بالشعر ؟ فأعفاها منه . ولم يكن أبو
العتاهية إلا رجلاً تاجراً لا يهيمه الحب ، وهو لم يقصد بغداد
إلا من أجل المال كما سنبينه بعد ما

عبد المتعال الصعير

فقالوا من هذه ؟ قالوا عتبة ، فقال أبو العتاهية : قد عشقت
عتبة ؛ ولم يزالوا كذلك إلى أن التأمث لها أشعار كثيرة فيهما ،
فدفع صاحب خالصة بشعره إليها ، ودفع أبو العتاهية بشعره إلى
عتبة ، وألحا في ذلك إلحاحاً شديداً ، فرة تقبل أشعارهما ، ومرة
يطردان ، إلى أن صح عزيم الجاريتين على امتحان عاشقهما بمال
على أن يدعا التمرض لهما ، قالت قبل المال كانا مستأكلين ،
وإن لم يقبلنا كانا عاشقين ، وكان لهما معهما شأن في الحالين . فلما
كان الندمرت خالصة فمرض لها صاحبها ، فقال له الخدم اتبعنا
فاتبعهم ؛ ثم مرت عتبة فمرض لها أبو العتاهية ، فقال له الخدم
اتبعنا فتبعهم ؛ فبعت به إلى منزل خلط لها بزّاز ، فلما جلست
دعت به فقالت له : يا هذا إنك شاب وأرى لك أدباً ، وأنا حرمة
خليفة ، وقد تأنيتك فإن أنت كفتت وإلا أنهيت ذلك إلى أمير
المؤمنين ثم لم آمن عليك . فقال لها : فافعل بأبي أنت وأمي ، فانك
إن سفكت دى أرحمني ، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذ لم يكن
لي فيك نصيب ، فأما الحبس والحياة ولا أراك فأنت في حرج
من ذلك . فقالت : لا تفعل يا هذا وأبق على نفسك ، وخذ هذه
الحسنة الدينار واخرج عن هذا البلد . فلما سمع ذكر المال
ولى هارباً ، فقالت ردوه ، وألحت عليه فيها فقال : جعلت فداك
ما أسنع بمرض من الدنيا وأنا لا أراك ، وإنك لتبطين يوماً
واحداً عن الركوب فتضيق بي الأرض بما رحبت . فزادت
له في ذلك إلى ألف دينار ، فجاذبها مجاذبة شديدة ، وقال لها : لو
أعطيتني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة ، وأنا
لا أراك بعد أن أجد السبيل إلى رؤيتك . ثم خرج فجاء الغرفة
التي كانوا ينزلونها فاذا صاحبه موزع الأذنين ، وقد امتحن بمثل
محنته ، فلما مدَّ يده إلى المال صفعوه ، وحلفت خالصة لئن رآه
بعد ذلك لتودعنه الحبس ، فاستشار أبا العتاهية في المقام فقال له :
اخرج وإياك أن تقدر عليك

ثم التقتا فأخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر ، وأحمدت
عتبة أبا العتاهية ، وصح عندها أنه محب محق . فلما كان بعد أيام
دعته إليها وقالت له : يجيئني عليك - إن كنت تمرزها - إلا
أخذت ما يمطيك الخادم فأصلحت به من شأنك ، فقد غنى سوء